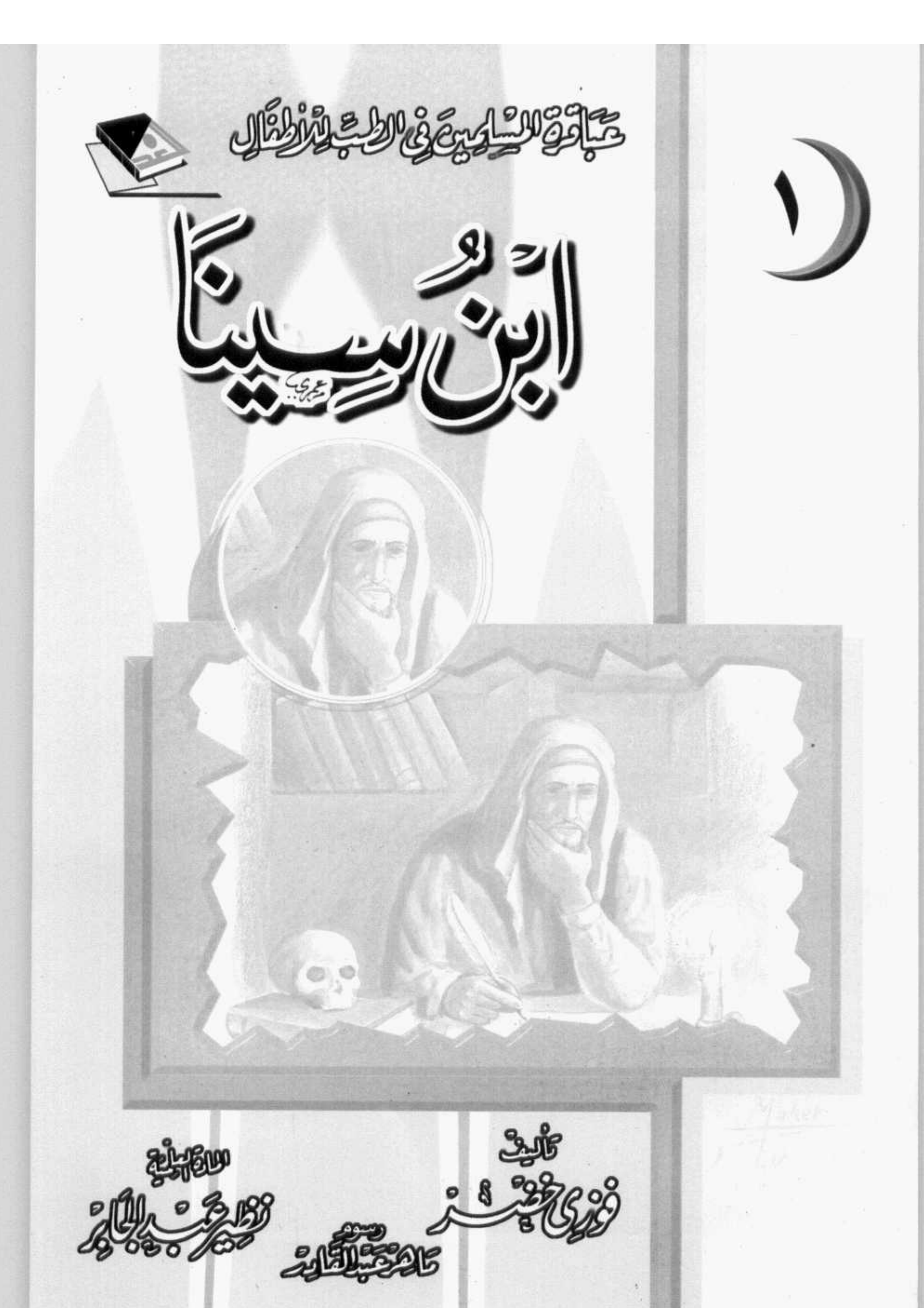

عباقرة المسلمين في الطب للأطفال
١
ابن سينا
تأليف
فوزي خضر
المادة العلمية
نظير عبد الجابر
رسوم
ماهر عبد القادر

الناشر : مكتبة ومطبعة الغد
العنوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - إمبابة - جيزة
تليفون : ٣٢٥٠٢٠٢
رقم الإيداع : ٨٣٠٨ / ٩٩
الترقيم الدولى : 1 - 26 - 5819 - 977
رسوم وإخراج فنى: ماهر عبد القادر
خطوط : مصطفى عمرى
مراجعة لغوية : حمزة عبد المنعم الزمر

الطبعة الأولى : صفر ١٤٢٠ هـ - يونيو ١٩٩٩ م

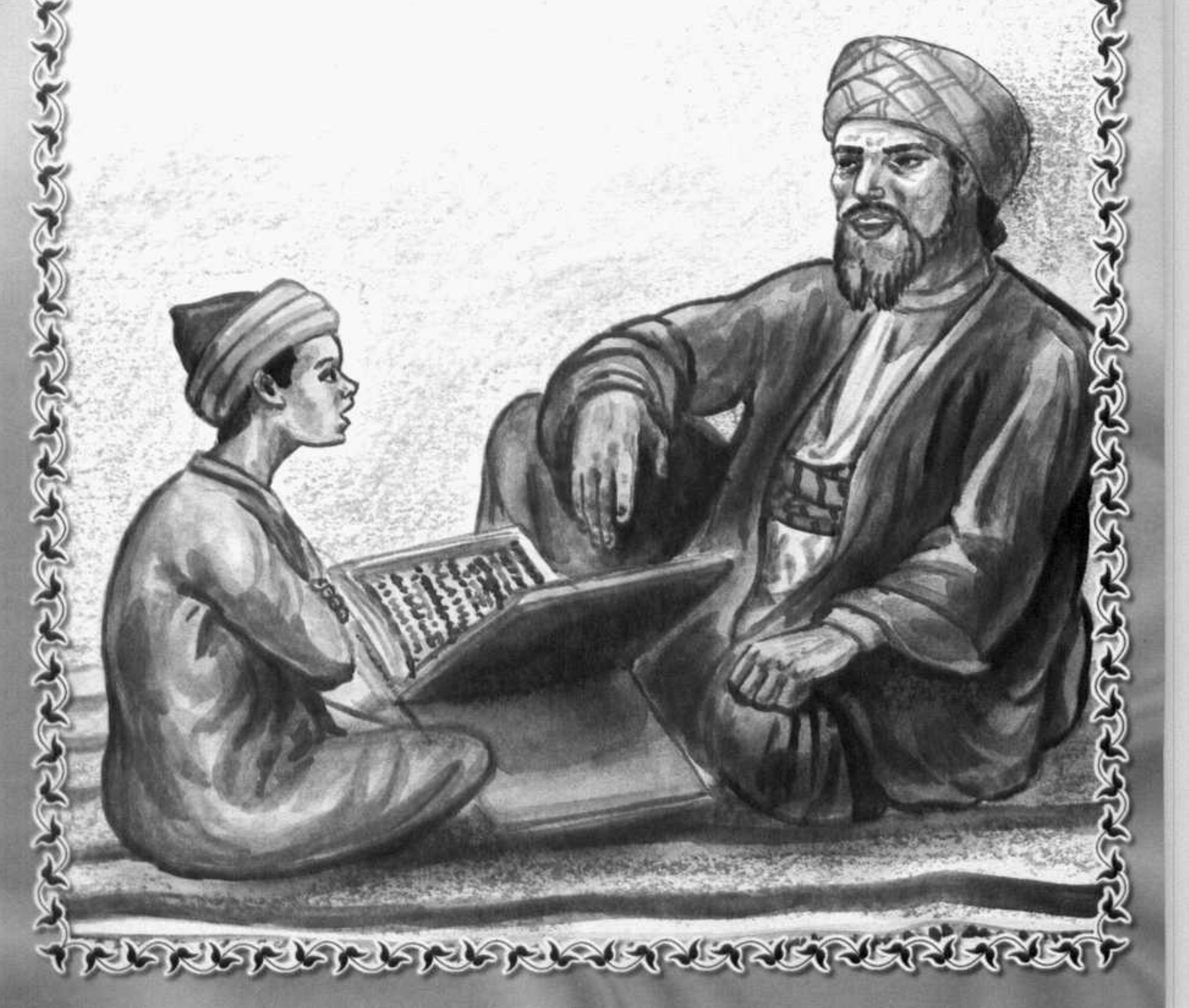



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كان يَوْماً فَريداً فى سَنَة ثَلاثمائَة وإحْدى وَسَبْعِينَ مِنَ الهِجْرَةِ النَّبويَّـةِ الشَّرِيفَة ، إذْ هَطَلَت الأمْطَارُ بَعْدَ طُول انْتظَار ، فَانْتَعَشَت الْحُقُولُ فِى قَرْيَة « أَفْشَنَة » ، وَهِىَ مِنْ قُرَى بُخَارَى فِى شَمَال إِيرانَ ، وَفى نَفْسِ ذَلكَ الْيَوْم امْتلأَتْ بيُوتُ الْقَرْيَة بِالْفَرْحَة وَالسُّرُور ، فَقَدْ وَلَدَتْ زَوْجَةُ الشَّيْخ عَبْد الله بْن سينَا وَلَداً ، أَسْمَاهُ وَالِدُهُ الْحُسَيْنَ ، وَلَمْ يكُنْ أَحَدٌ يَتَوَقَّعُ أَنَّ هَذَا الْوَليدَ الصَّغيرَ ، الْمُسَمَّى : الْحُسَيْن بن عَبْد الله بْن سينَا سَوْفَ يَصيرُ فِى مُقَدِّمَة عُلَمَاءِ الدُّنْيَا بِأسْرِهَا بِمُجَرَّد أَنْ يَصِلَ إِلَى سِنِّ الشَّبَاب .



كَبُرَ الطِّفْلُ الْحُسَيْنُ بْنُ سِينَا وَصَارَ غُلاَماً ، وَكَانَ وَالِدُهُ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ ، وَيُشَجِّعُ طُلاَبَ الْعِلْمِ ، وَكَانَ يَدْعُو الْعُلَمَاءَ الْمَشْهُورِينَ آنَذَاكَ لِيُدَرِّسُوا لابْنِهِ الْقُرآنَ الكَرِيمَ وَاللُّغَةَ وَالْفِقْهَ .







وبَعْدَ أَنْ تَتَلْمَذَ الْحُسَيْنُ بْنُ سِينَا عَلَى كِبَارِ الْعُلَمَاءِ فَتْرَةً وَجِيزَةً، بَدَأَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ بِنَفْسِهِ ، وَيُطَالِعُ شُرُوحَهَا فِى الْهَنْدَسَةِ وَالْفَلَكِ وَالْفِيزْيَاءِ وَالْفَلْسَفَةِ وَغَيْرِهَا .

بَدَأَ ابْنُ سِينَا دِرَاسَةَ الطِّبِّ وَعُمْرُهُ ١٦ (سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً) ، وَلَمْ يَمُرَّ أَكْثَرُ مِنْ عَامَيْنِ إلا وكَانَ وَاحِداً مِنَ الأَطِبَّاءِ الْمَاهِرِينَ، وَذَلِكَ لأَنَّهُ اجْتَهَدَ فِى الدِّرَاسَةِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَفْهَمَ بِوَعْيٍ وإِدْرَاكٍ كُلَّ مَا يَقْرَأُهُ ، وَكَانَ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ مَا لا يَفْهَمُهُ ، فَلا يَمُرُّ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يَسْتَوْعِبَ تَمَاماً كُلَّ كَلِمَةٍ فِى الْكِتَابِ الَّذِى يَقْرَأُهُ .



وَقَدْ حَفَلَتْ حيَاةُ ابْنِ سينَا بِالْحَرَكَةِ وَالْعَمَلِ وتَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْمُخْتَلفَة وإِتْقَانِهَا إِتْقَاناً تاماً ، فَصَارَ مِنْ أَشْهَرِ الأَطِبَّاءِ ، وَمِنْ أَكْبَرِ الْفَلاسفَة ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَرْمُوقِينَ فِى الرِّيَاضِيَّاتِ ،





والْفَلَك ، والتَّاريخ ، والْمُوسيقَا ، وَعِلْمِ النَّبَات ، وَعِلْمِ الْحَيَوَان ، وَالْجِيُولُوجِيَا (وَهُوَ عِلْمُ طَبَقَات الأَرْضِ) وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ كَانَ شاعراً بَلِيغاً ، وَمُتَحَدِّثاً لَبِقاً ، لَطِيفَ الْمَجْلِسِ ، سَرِيعَ الْبَدِيهَة ، عَمِيقَ الْحَدِيث ، فَصِيحَ الْعِبَارَة ، خَفِيفَ الظِّلِّ . وَكُلُّ هَذه الصِّفَات الطَّيِّبَة قَدْ جَعَلَت الأُمراءَ يُقَرِّبُونَهُ، بَلْ كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِى إغْرَائه بِأَنْ يُقِيمَ عِنْدَ الْوَاحِدِ مِنْهُم ، لِذَلك مَنَحُوهُ مَالاً وَفِيراً ، وعَيَّنُوهُ فِى مَنَاصِبَ رَفِيعَة ، وَصَلَتْ بِهِ إِلَى أَنْ صَارَ وَزِيراً .

لَكِنِ الْعَصْرُ الَّذِى عَاشَ فِيهِ ابْنُ سِينَا كَانَ عَصْرَ مُنَازَعَات وَصِرَاعَات ، لِذَلِكَ نَرَاهُ صَدِيقاً لأَحدِ الأُمَرَاءِ ، ثُمَّ نَرَاهُ مُضْطَهَداً مِنْ أَمِيرٍ آخَرَ ، عَدُوٍّ لِلأَمِيرِ الأَوَّلِ ، وَنَرَاهُ حِيناً سَجِيناً ، وَحِيناً رئِيساً للأَطبَّاء ،





وَحيناً هَائماً عَلَى وَجْههِ فِى الْبِلادِ .

لكنَّهُ عَبْرَ ذَلكَ كُلِّه لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنْ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ والدِّرَاسَة ، فَنَراهُ يَقْرأُ الْكُتُبَ الْعلْميَّةَ وَالأَدَبيَّةَ وَهُوَ وَزيرٌ ، وَنَراهُ يَقْرَأُهَا وَهُوَ سَجِينٌ ، ونَراه يُدِيمُ التِّرْحَالَ بَحْثاً عَنْ كِتَابٍ جَدِيد ، أَوْ سَعْياً إِلَى عَالمٍ جَلِيلٍ ، يَتَعَلَّمُ عَلَى يَدَيْهِ وَيَسْتَفِيدُ مِنْ عِلْمِه .

لَمْ يكُنِ ابْنُ سِينَا يكْتَفِى بِقِرَاءَةِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ ، بَلْ كان يَقْرأُ أيضاً الْكُتُبَ الْيُونَانِيّةَ وَالْفَارِسِيَّةَ ، وَهِىَ الْكُتُبُ الأَجْنَبِيَّةُ فِى عَصْرِهِ ،





وَلَمْ يكُنْ يكْتَفِى بِالقراءَةِ ، بَلْ كان يَشْرَحُ كُلَّ كِتَابٍ يَقْرَأُهُ أَوْ يُلَخِّصُهُ تَلْخِيصاً مُفِيداً ، لِهَذا كان اسْتِيعَابُهُ عَظِيماً .

وكَانَ الشَّرْحُ وَالتَّلْخِيصُ لِلْكُتُبِ الَّتى يَقْرَأُهَا خُطْوَةً أُولَى ، أَعْقَبَتْهَا الْخُطْوَةُ الثَّانِيةُ وَهِىَ التَّأْلِيفُ . لَقَدْ بَدَأَ يُؤَلِّفُ الْكُتُبَ ، بَعْضُهَا صَغِيرٌ لا يَتَعَدَّى الثَّلاثِينَ وَرَقَةً مِثْلُ كِتَابِ الْحِكْمَةِ الْعَرُوضِيَّةِ ، وبَعْضُهَا مُتَوَسِّطٌ يَقَعُ فِى خَمْسَةِ مُجَلَّدَاتٍ، مِثْلُ كِتَابِ الْقَانُونِ فِى الطِّبِّ ، وَبَعْضُهَا كَبِيرٌ يَصِلُ إِلَى سَبْعَةَ عَشَرَ مُجَلَّداً ، مِثْلُ كِتَابِ الشِّفَاءِ .

وَقَدِ انْتَشَرَتْ مُؤَلَّفَاتُ ابْنِ سِينَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَتَنَاقَلَهَا الْعُلَمَاءُ وَالطُّلابُ فِى مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، فَزَادَتْ شُهْرَتُهُ ، وَصَارَ طُلابُ الْعِلْمِ يُسَافِرُونَ الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةَ عَلَى ظُهُورِ الْجِمَالِ ، حَتَّى يَتَتَلْمَذُوا عَلَى يَدِ الْعَالِمِ الْعَبْقَرِىِّ ابْنِ سِينَا .

أَلَّفَ أبو على الْحُسين بْنِ سينا حَوَالِى مَائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ كِتاباً، وَذَاتِ يَوْمٍ سَأَلَهُ أَحَدُ تَلامِيذِهِ عَنِ السَّبَبِ الرَّئِيسِىِّ الَّذى



جَعَلَهُ يُؤَلِّفُ تِلْكَ الْكُتُبَ ... فَأَجَابَ ابْنُ سينا قائلاً :

لَقَدْ أَجْرَيْتُ تَجَارُبَ كَثِيرَةً ، وَقُمْتُ بِأَبْحَاث فى مَجَالات مُتَعَدِّدَة ، فَوَجَدْتُ أَنَّ كَثِيراً مِمَّا تَوَصَّلْتُ إِلَيه مِنَ اكْتِشَافَات لَمْ تَذْكُرْهُ الْكُتُبُ التَّى قَرَأْتُهَا ، لِذَلِكَ قَرَّرْتُ أَنْ أُسَجِّلَ مَا قُمْتُ بِهِ مِنْ أَبْحاثٍ وَمَا تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ مِنْ نَتَائِجَ فِى كُتُبٍ ، تَكُونُ فِى مُتَنَاوَلِ أَيْدِى النَّاسِ .



حِينَذَاكَ اقْتَربَ تِلْمِيذٌ آخَرُ مِنْ تَلامِيذِ ابْنِ سِينَا ، وَتَوَجَّهَ بِالْحَدِيثِ إِلَى التِّلْمِيذِ الأَوَّلِ قَائلاً :

أَلا تَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْخَ الرَّئِيسَ ابْن سِينَا حِينَ أَجْرَى التَّجَارِبَ الْكِيميَائِيَّةَ - مَثَلاً - اكْتشف طُرقاً جَدِيدَةً لِتَحضِيرِ الْكُحُولِ ؟ وَأَنَّه حين بَحَثَ فِى طَبَقَاتِ الأَرْضِ اكْتَشَفَ وُجُودَ حَفْرِيَّاتٍ فيها ، ولَمْ يُشِرْ إلى ذلك أحدٌ مِنْ قَبْلُ ، أَلا تَعْلَمُ أَنَّهُ فى عِلْمِ الطَّبيعيَّات (الذى هو الفيزياء) قَدْ أَدْرَكَ أَنَّ الْبَصرَ يَسْبقُ الصَّوْتَ ، وَأَنَّ السَّمْعَ يَحْتَاجُ إِلَى تَمَوُّجِ الْهَوَاءِ ، وأنّ السُّحُبَ تَتَكَوَّنُ مِنَ الأَبْخرَةِ الرَّطْبَةِ ، وَأَنَّه أَوَّلُ مَنِ اكْتَشَفَ ذَلك ؟ أَلا تَعْلَمُ أَنَّه - فى الْمِيكَانِيكَا - أوَّلُ مَنِ اكْتَشَفَ الْقَانُونَ الأَوَّلَ مِنْ قَوَانِينِ الْحركَةِ ، الَّذى يَقُولُ : إنَّ الجسمَ يَظَلُّ فى حَالَة سُكُونٍ أَوْ حركَةٍ مُنْتَظِمَةٍ فِى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ مَا لَمْ تُجْبِرْهُ قُوَّةٌ خَارِجِيَّةٌ عَلَى تَغْيِيرِ حَالَته ، أَلا تَعلمُ أنه أوّلُ من اكْتَشَفَ إِمْكَانِيَّةَ تَدَاخُلِ النَّغَمَاتِ فِى الْمُوسِيقَى (المسمى الهارمونى) ، أَلا تَعلمُ مَا اكْتَشَفَهُ فِى مَجَالِ الطبِّ من الأمراضِ وَطُرُقِ التَشْخِيص



وأسَاليبِ الْعِلاجِ ألا تعلمُ نَظَرِيَّاته فِى الْفَلْسَفَةِ وفى الطَّبيعَة ومَا وَرَاءَ الطَّبيعَة ؟

قال التلميذُ الأوَّلُ : مَهْلاً يا زَمِيلى .. فَأنا جَديدٌ بينكم



وأَردتُ أَنْ..... قاطعهُ التلميذُ الأول قائلاً : إِنَّ مَا ذُكَرْتَهُ لَكَ جُزْءٌ من مُكْتَشَفَاتِ الشيخِ الرئيس ، وَمِنْ أَجْلِ هَذِه الْمُكْتَشَفَاتِ وَغَيْرِهَا أَلَّفَ كُتُبَهُ التى اشْتَمَلَتْ على الْمَعَارِفِ الْجديدةِ التَّى تَوَصَّلَ إليها مُتحلِّياً بالأمانة فى البحث الْعِلْمىِّ ، والإخلاصِ فى العملِ ، والصدقِ فى النَّتائجِ التى تَوَصَّلَ إليها .

حِيَنَذَاكَ هَتَفَ التِّلْميذُ الأَوَّلُ مُنْفَعِلاً : يا أخى . . . أنا أَعْلَمُ كلَّ هذا الذى ذَكَرْتَهُ ، لكنِّى جَديدٌ بَيْنكم كما قُلْتُ لك ، وحينما سألتُ الشيخَ الرئيسَ لَمْ أَكُنْ أحتاجُ إلى الْجَوابِ بِقَدْرِ ما كنْتُ أَحْتاجُ إلى التحدُّثِ إليه ، لأنَّ المحادثةَ تُقرِّبُ بين الناس ، وَمَا جَعَلْتُ سُؤَالى إلا وسيلةً كَى أَتَحَدَّثَ إِلَى الشَّيخِ الرئيسِ ، حتَّى لا أشْعُرُ أَنِّى غَرِيبٌ عَنْهُ .

ابْتَسَمَ ابنُ سينَا حِينَذَاكَ ، وَأَعْجَبَهُ ذَكَاءُ تِلْميذِهِ الجديدِ ، وظلَّ يَتحَدَّث إليه وقتاً طويلاً .

وبِالرَّغْمِ من الأهميَّة الْقُصْوَى لِمؤلَّفاتِ ابنِ سينَا ، إلا أنَّ كِتَابَهُ الذى أسماهُ «القانونُ فى الطب » هو أعْظَمُ مُؤَلَّفاتِهِ على



الإطلاق ، لذلك ظلَّ هو المرجعُ الرئيسىُّ فى الطب فى العالم كُلِّه لعدَّة قُرُون ، وليسَ له مَثِيلٌ فى ذلك لا قديماً ولا حديثاً ، وقد طُبِعَ فى أوروبا أكْثَرَ من عشرين طَبْعَةً ، ولَمْ يكُنْ يُسمَحُ بدراسة الطبِّ فى إيطاليا إلا للطُّلابِ الَّذين يُجيدُون اللغَةَ العربيَّةَ ، حتى يَستَوْعِبُوا كتاب « القانون فى الطب » لابن سينا، إذْ كان يدرسُ فى تلك الجامعاتِ باللغةِ العربية .

يَقَعُ كتابُ « القانون فى الطب » فى خَمْسِ مُجلَّدَات ، تَقَعُ فيما يَقربُ من ألْفَىْ صَفْحة من الْقَطْعِ الْكَبِيرِ ، وَهُوَ يَمْتَازُ بجودة التنظيم ، والتقسيم إلى مقالات وأبوابٍ وفصولٍ ، وهو يَعْرِضُ حقَائقَ الطبِّ العام ، ويَصفُ ظواهرَ الأمراضِ التى تُصيبُ الإنسانَ ، بادئاً بتلك التى تُصِيبُ الرَّأسَ ، مُنتهياً بالتى تُصيبُ القدمَ ، مروراً بكلِّ أجهزةِ جِسْمِ الإنسانِ بأجزائه المختلفةِ ، وعَرضَ بالتفصيل (٧٦٠) سبعمائة وستين دواء من العقَاقِيرِ الطَبيَّةِ النباتيَّةِ والحيوانيَّةِ والمعدنيَّة .

وقد اشتملَ كتاب « القانون فى الطب » على معارفَ طبيَّة كثيرةٍ ، منها اكتشافُ ابن سينا لالْتِهَابِ أغْشِيَةِ الدِّماغِ وطريقةِ



علاجها ، وَشَلَل الوجه ، وخُرَّاجِ الكبد، والتَّشْخيصِ الدقيقِ لِحَصَى الْمَثَانة ، حتى قال أمينُ أسعد فى كتابه « الطب العربى» : « إنه يَصْعُبُ علينا فى القرن العشرين أَنْ نُضِيفَ شيئاً جديداً إلى وَصْف ابن سينا لأعراضِ حَصَى المثانَة » كذلك كان ابْنُ سينا أوَّلَ مَنِ اكْتَشَفَ دُودَةَ الأنكلستوما التى تُصيب أمعاء الإنسان ، وقد صَدَرَ بَحْثٌ عن مؤسسة (روكفلر الأمريكية) أَثْبَتَتْ فيه أنَّ ابْنَ سينا كان يعرفُ مَرَضَ (الأنكلستوما) بالإضافة إلى كثير من الأمراض شَخّصَها ابن سينا ، وذكر وسَائلَ عِلاجِها .

هكذا كان أبو على الحسين بن سينا واحداً من أجدادنا الذين آمنوا بأهميَّة الإخلاص فى العمل ، وكان عَمَلُهُ فى مجالِ الْبَحْث العلمىِّ ، وهداه الله - عزَّ وجلَّ - إلى تَأْليفِ كتابِ «القانون فى الطب » ، فَسَجَّلَ فيه صَفَحَات مُشْرِقَةً أفادَت البشريَّة جمعاء ، واستَحَقَّ لَقَبَ الشيخ الرئيس ، فَقَدْ كَانَ شَيْخَ العلماء وَرَئيسَهُم .